# السيميائية بين الذات الناقدة واثبات الهوية

د.بن ضحوى خيرة بنت عدة

## أ-البحث عن الذات بأصداء الآخر والرجوع إلى التراث

**تشغل القراءة السيميائية حيزا كبيرا من الاهتمام، ولئن كانت توصف في بعض الأحيان بموجة جدة، لطالما سينتهي أمرها بظهور جديد آخر، وأمر طبيعي أن يبحث المرء عن كل ما هوجديد يعبر من أجله المسافات، ويطور لأجله المصطلحات والمفاهيم، فبفعل التطور الذي اتخذته الثقافة العربية المعاصرة مسارا لها حدث أكبر تحول نقدي عربي، ضمن مقولات تتبع خطى النقد الغربي في آخر تطوراته، وترقب النقد العربي في تحولاته المستمرة، المشتغلة كل الانشغال على مضاعفة الخطاب.**

**بدا الأمر محاولة لإعادة تشكيل الأنا من خلال نتاج الآخر، من منطلقات منهجية وإجراءات نقدية تجسد عملية إصغاء لمشاريع نقدية مختلفة، أوحالة تأمل لا نهائية، الغرض الظاهري منها بسط أرضية فك شفرات الخطاب الأدبي المراوغ، لذلك صار الناقد العربي يحمل هموم، ومسؤولية المثقف العربي ككل في إيجاد طريقة مثلى، للتفاعل مع المعرفة الغربية الوافدة إلينا، فصار" من الممكن وصف التفاعل مع الغرب، على أنه نوع من الاستقبال بالمعنى المزدوج للاستقبال، استقبال بمعنى التلقي والسعي إلى التفاعل البناء واستقبال بمعنى اتخاذ المكان أوجهة قبلة"١في الحالتين الناقد العربي في حالة تحصيل مستمر لما هووافد.**

وفكرة تقبل ذلك أورفضه لا تظهر إلا بعد مضي زمن، من أجل هذه القراءة كغيرها من القراءات الوافدة عرف المجتمع العربي على الصعيدين الثقافي، والأدبي تحولات كبرى بدءا من أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مثلث حركة نشطة لمعرفة الآخر، واكتشافه ومحاولة التفاعل معه، من خلال ملامسة منجزاته الإبداعية النقدية على وجه الخصوص، وسواء بالترجمة أوبطرق أخرى" ،ومهما كانت المواقف من هذه المعرفة وفي مختلف المنعطفات التاريخية فإن امتدادها يظهر بجلاء في الفكر العربي الحديث بأشكال وبصور متنوعة"٢،كما أن تشكيل الوعي والممارسة النقدية العربية لم يأت جملة واحدة، وإنما مر هوالآخر بمراحل سبقتها مدارس، ومعاهد متخصصة لذلك كانت أكبر نقلة نوعية هي ما حدث على مستوى التحور، من نقد تقليدي إلى نقد ذي أبعاد ورؤى لا تكتفي بالشروح، والتعليقات وإنما إلى أبعد من ذلك بكثير.

مُحاولة تشكيل تواصل نقدي منشأه ملامسة الخطاب النقدي الغيري بلا محدودية، أوتريث فمن أجلها-القراءة السيميائية-صرنا نحاول إعادة إنتاج دلالات الخطاب الشعري من جديد، ونعيد النظر فيما بين أيدينا من إجراءات، وكذلك من أجل الابتعاد بالخطاب الأدبي العربي عما قيل عنه في السابق، من انطباعات وصفت بعضها بالقاصرة ،وبعضها الآخر بالإجحاف والجمود، إن مثل هذه الحركة المعاكسة، غيرت من مستوى الخطاب الأدبي والنقدي ككل،وصار هذا الاستقطاب سيل مستمر دونما توقف.

تتحكم فيه تفاعلات حدثت على مستوى ثقافات متكاثفة في الإنجاز، والطرح النظري والتطبيقي في مجالي الأدب، والنقد طبعا إذ" ليس التأريخ لبدايات التفاعل العربي مع النقد الغربي سوى جزء من الثقافة العربية التي أنتجته، والتي يصعب تصور مرحلتها الإحيائية بدون المؤثرات الغربية"٤، الماسحة لكل الحدود الجغرافية والمقلصة للمسافات.

لذلك فإن سريان النقد الغربي في النقد العربي، أمر لا يختلف فيه اثنان بحيث إن"العلاقة بين النقاد العرب، وبين النقد الغربي هي أما علاقة واعية أوغير واعية لكنها موجودة وفاعلة في الحالتين،فليس ثمة ممارسته نقدية عربية جادة، تستطيع أن تدعي وقوعها خارج سياق التأثير الغربي أوالتفاعل معه على نحومن الأنحاء، وإنما الفرق بين ناقد وآخر، وبين تيار هوالموقف المتخذ أوكيفية التعامل"٥، ولعل الخطاب الأدبي هوالمكان الذي تتوحد فيه هذه الأضداد، بين ماض وحاضر، نقد عربي ونقد غربي الذات،

والذوات لأخر،"وشيء طبيعي أن تتغير القراءة نحو"تطوير" الفهم استجابة لمتغيرات العصر،ومتطلباته المستحدثة فيه طبقا لما نسعى إلى تحقيقه في لحظات الكشف والرؤيا"٦،فما يشغل الناقد العربي يتأرجح بين الممكنات، الأداة المطواعة لقراءة الخطاب الأدبي، والسبق في إضافة الجديد للساحة النقدية العربية.

بيد أن الإحاطة بمجمل أطراف الخطاب الأدبي، وتفحصه ومحاولة إضاءة ما أغفل أمر ليس بالهين إذا نظرنا إلى أدواتنا المعرفية،"فأدوات معرفتنا الجديدة بالتراث ليست من صنعنا تماما لكن يمكن أن نمتلكها تماما بالفحص والتدقيق"٧،وذلك لا يتأتى إلا بممارسة مستمرة تضمن امتلاك ناصية القراءة،والتحكم في الإجراء، قراءة من أجلها نعيد استثمار إمكانيات النص،وإعادة إنتاجه،والتعامل معه كمادة يعاد إحياؤها من جديد، وفق هذا التصور يصبح الخطاب الواحد خطابات، وإعادة قراءته ما هي إلا إعادة اكتشاف.

## ب-البحث عن الذات بأصداء الآخر والرجوع إلى التراث:

لما كان تتبع الآخر حتمية لابد منها صارت التراجم والكتب والمعارف سيل يتدفق دونما انقطاع ولا انتظار إجراءات تلوى الأخرى، ونظريات عقب نظريات وحلقات بحث تحاول الوصول إلى استكمال محاصرة الخطاب الأدبي وقراءته، حتى يتسنى كشف جوهره، سببت هذه الحركات موجات أخرى في تلقي الخطاب النقدي الغربي بأحدث نظرياته انقسمت إلى ناقل منبهر وناقد مقلد،ومتتبع وناقل لا يدرك من أين يمسك بالخيط الأول للنقل وآخر بوسائط نقلا عن وأهمهم جميعا ناقل واع ينقل ويتفحص ويدقق ويسترجع ويقارن في بعض المرات.

هذه الحركة الأخيرة عبرت بشكل مباشر عن وجود ثغرات يرجى ملؤها أوبالأخرى من الواجب ملؤها مكنت من طرح تساؤلات كثيرة منبعها بقايا وشم في التراث النقدي لم تمح بعد، وكما هومسلم به الالتفاتات الجريئة إلى التراث هي ما قلص من الهوة بيننا وبين التراث وبيننا وبين الآخر بل يمكننا القول إنها سواعد غيرت مجرى الملاحقة وقلبتها إلى ملاحقة داخلية.

تنْظمُ إلى محاولات كثيرة كشفت نوعا ما عن الضبابية التي أحدثها الانبهار الشبه كلي للنتاج الغربي ولعل أهم عمل اخترناه كنموذج لتبيان هذه الظاهرة كتيب مكثف بالحقائق موسوم ب:"في السيميائيات العربية قراءة في المنجز التراثي"٨ هذه النظرة التي آثر صاحبها تسليط الضوء على مجموعة من القضايا شغلت بال العديد من القراء قضية اتصالنا بالتراث في شكله المضمر وانفصالنا عنه بشكله المعلن والظاهر.

عالج هذا العمل العديد من القضايا كقضية العلامة وطبيعتها وكذا أنواع العلامات وربطها بقوانين النظم ونظرية المعنى، لكن "لا شك أن هناك جوانب كثيرة في التراث العربي الإسلامي، هي من العمق والاتساع والغزارة والتنوع ما يمكن أن يشكل مدخلا هاما لدراسة سيميائية عربية أصلية ومتفردة أغفلتها هذه الدراسة عن قصد"٩وهوما يمكن تسميته إن صح القول توجيه زاوية النظر أوالدعوة إلى تفحص التراث وكشف ملامحه التي لازال يعلوها الغبار.

غير أن ذلك لا يعني "الاكتفاء بمنجزات هذا الموروث والوقوف عنده لا نبرحه، وأن نلوكه فيما الزمن يجري والمعرفة تتطور وتتجدد في كل حين فذاك أمر مستحيل القول به في ظل مستجدات العصر"١٠،ما أراد الباحث بثه من خلال خطابه هم ناقد عربي في البحث عن الطريقة المثلى لتكثيف الجهود والعمل الجماعي حتى يتسنى لنا الاستفادة من جميع الخبرات بتنوع أصحابها،فلا يمكن لعمل فردي أورؤية فردية الإلمام بجميع النواحي لأنه بكل بساطة تتبع الأثر يحتاج إلى دليل وإلى رفقة ومعرفة ومقارنة بين الآثار الأخرى والأهم من ذلك معرفة الأرضية التي يوجد عليها الأثر طبعا "وفق خطة مرسومة وإستراتيجية معلومة"١١، كانت هذه آخر جملة من الكتاب لكن وكأنها أول كلمة انطلق منها بشكلها التصريحي.

هناك ما يقابل ذلك بطابع غير مباشر تكتسي به الكتب التطبيقية أوالتي تبدوكذلك أحيانا من خلال التطبيق، إذ يلاحظ أن جل الكتب إن لم نقل كلها التي تعتمد السيميائية قراءة لأي خطاب سواء أكان نثريا أوشعريا، تبتدئ بذكر التنظير كترتيب زمني يتطلبه البحث في بعض الأحيان، غير أن الملفت للنظر هوذكر الدفتين معا: التراثي والمنجز الغربي، وفي بعض الأحيان ينفصلان عن بعضهما فيركز على أحدهما دون الآخر.

قام عبد العاطي كيوان في كتابه "منهج التناص" بعمل مزج فيه النظري بالتطبيقي بشكل متواز نوعا ما "في بابه الأول يمثل (درسا نظريا) على كثرة

الكتابات في هذا الجانب ويمثل (بابه الثاني) آخر (تطبيقيا) "١٢، هذه الأنواع من الكتابات تضيف إلى النبرة النقدية العربية دعائم أخرى تمثل التراث النقدي العربي والنقد الغربي، وكأن صورتنا التي نبحث عنها لا يمكن إن تكتمل دون ملاحقة ما جاء وما سيأتي بعد ذلك.

نبالغ أحيانا حين نركز على جانب واحد بإغفالنا للجانب الآخر الخفي والذي تظهر معالمه في كتاباتنا شئنا أم أبينا فنحن نحمل دائما صورة عن الماضي التراثي النقدي طبعا بنوع من الأسى كونه لم يلق الاهتمام والتطور ذاته كما حدث مع المنجز الغربي قديمه وحديثه.

طموح الاسترجاع واستكمال الصورة كما نود رؤيتها تمثله بعض النقاد الذين يعتريهم الهم في تصحيح صورتنا لذواتنا وللآخر،فإذا كانت صورتنا بالنسبة لنا نحن تبدوضبابية وغير مكشوفة غير مقنعة فكيف يا ترى نمثل ونرسل صورتنا للآخر، لا نريد أن نبتعد كثيرا عما رسمناه منذ البداية لكن فرضيات واحتمالات كثيرة تطفوا بالرغم عنا وتظهر على السطح، الأعمال المترجمة كثيرة وناقل القراءة السيميائية من منابعها الأصلية× موجود، إذا حلقة الوصل متوفرة لكن النظام التواصلي كما عبر عنه جاكبسون عاجز نوعا ما عن تأدية وظيفته.

لسبب بسيط هوالتغيير الدائم في وظائف المرتكزات دون وضع تقييمات بين الفينة والأخرى،ليبدومعه الخطاب النقدي "يخفق وينجح في بحثه عن ذاته من داخل أصوله ومن داخل حداثة تهجم عليه وتفتتح أكثر من أفق للاختلاف والمغايرة بحثا عن هويته، عبر علاقة قلقة ومرتبكة بين الذات والآخر!" ١٣،الذي يلازمنا في كل انجازاتنا وفي كل مراحل تطوراتنا وتخلفنا عن الركب.

يبدوأن الأمر يحتاج إلى إعادة نظر كلية وإعلان التوقف، ولا نقصد بذلك محوالصيرورة أوالالتزام والوقوف فقط على ما جاء به التراث ولا زال، وإنما التوقف عند بعض الأعمال، توقف مشروعه "معرفة الذات أولا وفك إسارها من قبضة النموذج السلف، حتى نستطيع التعامل مع كل النماذج تعاملا نقديا"١٤،ولما لا يكون نقدا للعقل النقدي العربي حتى نتمكن من إعلان نقطة الانطلاق.

فإذا افترضنا أن الرجوع إلى التراث يمثل شكلا من أشكال إثبات هوية كادت تختفي بين طيات الزمن الكتابي، ولا نقصد بذلك انطماسها من المجال الواقعي،لأننا بذلك نقول كلاما مغايرا لما طرحناه في بداية ،ولأنه بكل بساطة تتبع الظاهرة ليس كالغوص فيها، وملامسة أطرافها، والتطرق إلى جذورها ، أوما يشير إليها فإننا بذلك نحاول الوقوف على السبب الحقيقي من وراء الرجوع إلى التراث والتنقيب فيه×، وان كنا لا ندعي الإتيان بالحقيقة ،وإنما إعلان ميلاد فرضيات قد تثبت صحتها، وقد تعلن عن غيبتها منذ البداية.

انطلاقنا في هذه الفرضية من جانبين: جانب كمي وجانب آخر نوعي، فإذا لاحظنا عمليات الرجوع إلى التراث والتنقيب فيه عن الجذور الأولى للسيمائية، نرى أن بعضها يكاد يكون بطيئا إلى درجة التوقف أحيانا، وبعضها الآخر يتسارع بشكل مبهر.

ليس لأن التراث الأدبي العربي مغري فحسب بل لأن العملية في رمتها مغرية، كما أن هناك مقالات كثيرة كتبت، تعلوالتسميات فيها وتهتف بتطبيق القراءة السيميائية، أوفي بعض الأحيان المقاربات السيمائية للخطاب الشعري معروف تعددها من حيث الكم، ومختلف مراوغ تنوعها من حيث التطبيق ربما لأن بعضهم "ما زال بعد في محاولة فك طلاسم السيميائية رؤية غائمة ومنهجا غائما غير متماسك لم يستوعب بعد حدود عمله (...) أما الصنف الآخر فهوذاك الذي خطا أشواطا في البحث السيميائي فهومتمكن من منهجه مستوعب لأفكاره (...)"١٥،ومع ذلك تبقى النسبية الطيف الذي يتنقل بحرية بين الأعمال النظرية والتطبيقية سواء الأكثر حضورا على الساحة النقدية أوالأقل حظا في الظهور.

لكننا إذا أمعنا النظر أكثر في سبب تسارع النقاد في الرجوع إلى التراث والبحث عن كل ما يمت للسيميائية ،من صلة فنحن بذلك نعلن عن وجود احتمالات أخرى، إما تقبل الفكرة بوجودها وإما تقليد بعضهم لبعض، وهذا افتراض نسبته ضئيلة جدا بالمقارنة مع ما ذُكر سابقا، وأمر آخر يبدولنا أكثر اقترابا أن الناقد العربي بدأ يفهم نوعا ما يقدم إليه مما أمكنه من إقامة مقارنة عملية في ظاهرها لكنها أكثر تعقيدا في أصلها المضموني، وبذلك فالرجوع إلى التراث العربي حلقة وصل وفصل معا وصل من حيث ربط ما هومعاصر بما هوتراثي، وفصل من حيث زاوية نظر ترى في المعاصرة بعدا زمنيا وفكريا بعيد كل البعد عن الماضي السحيق.

**ج- الخطاب الشعري نماذج متمايزة في التطبيق:**

يقع القارئ بين فكي سلطة النص من جهة وسلطة القراءة السيميائية من جهة ثانية تلك التي تفرض بعضا من آلياتها على القارئ فرضا لا يمكن مقاومته، خاصة إذا تم الاعتماد على كامل إجراءاتها بعكس المقاربة التي تكسب بعضا من حرية الاختيار والتجاوز في بعض الأحيان غير أن التجاذب الحاصل والفاعل في الآن ذاته، لا يمس الإجراءات وحسب وإنما يتعدى إلى مجال آخر يبتعد عن الإجراء ويتماشى معه إنه النص المقروء.

تغير المواقع وبشكل متبادل أمر لا مفر منه فأثناء فهم ورصد الخطاطات والرسومات يحاول القارئ فهم الخطاب الأدبي أيضا، وفهم ما يترتب عنه من القراءة والتحليل التي تضحي فيما بعد نصا مضاعفا على نص آخر، هذا المجال الذي يتسع إن صح القول ليمس مجال آخر تكبر حلقاته كلما ضرب في العمق لتصل إلى حوافي غير متناهية،لأن العمل القرائي ينقل بشكل تلقائي إلى متلق يندمج فيه عدد هائل من القراء قد يفهمون ما كتب وقد لا يتداركون الأمر، لأن القارئ الأول لا ينتظر هوعلى عجلة من إتمام ما بدأ به وما سيصل إليه بعد ذلك.

هذه الحالة إذا نظرنا إليها بالعملية العكسية ستبدوصحيحة لأن كل من القارئ والمتلقي يحاول أن يعي جوهر الخطاب المقروء، الذي يتعدد بتعدد الزوار له، لا نريد أن نبتعد كثيرا كأن نسميها مشكلة بل يمكننا أن نعطيها تسمية أخرى باعتبارها واقعا ملموسا، محاولات القراءات الجادة ومحاولات المتلقي في فهمها خلقا نوعا من الاقتصار على بعض النصوص، هذا إن لم نقل أن بعضها نال حظا أكثر من غيره في التحليل والقراءة فإذا كانت القراءة السيميائية لديها كل تلك القدرة الفائقة على القراءة والمحاورة فلما تقتصر على بعض النصوص دون غيرها؟.

ربما هناك قناعات كثيرة حول مسألة أن البيت الواحد قد يبلغ من القراءة مجلدا بكامله أومجموعة كتب أن لم نبالغ لكن لماذا يقتصر الموضوع على بعض، ولما يتجاوز الفارق في بعض الأحيان مساءل كثيرة كأن تتجاهل أبيات أومقطوعات أوتترك فراغات، بطبيعة الحال نحن لا نتحدث عن عجز القارئ ولا عن عجز القراءة السيميائية، وإنما نتحدث عن سيميائية تختار من النصوص ما يوافق إجراءاتها.

طبعا ربما يرجع الأمر كما ذكرنا في الفصول الأولى أن في سابق عهدها اهتمت بما هوسردي، ثم انتقلت إلى الخطاب الشعري بشكل جريء، كما قد يتعلق الأمر بمفاهيم سيميائية التي تختلف من غريماس إلى بيرس "فالحديث عن سيميائيات بورس هوحديث عن تصوره لعملية الإدراك إدراك الذات وإدراك الآخر، إدراك "الأنا" وإدراك العالم الذي تتحرك داخله هذه "الأنا" ١٦ هناك احتمالية تأثير هذه المفاهيم على النتاج التطبيقي، فإذا رصدنا عمل ناقدين أوثلاث من خلال خطاب شعري واحد، نجد النتائج تبدوا متمايزة حسب طريقة فهمهم للإجراء وحسب زاوية النظر،وبحسب الثقافة والأيديولوجية التي تختلف من ناقد لناقد آخر.

يضاف إلى جانب الفوارق الواضحة لفهم المصطلح وطريقة تطبيقه واستيعابه وكذا فهم المنجز النظري والتطبيقي للقراءة السيميائية الوافدة، هناك فهم للنص وكيفية محاورته والميزات التي قد تصدر عن بعض هذه النقاط ،قد نلخصها في وحدة شاملة نسميها التفاوت والاختلاف خاصة إذا ما رجعنا إلى ما تطمح إليه القراءة السيميائية ككل في محاولة رسم معالم خارطة يتبعها القارئ، يوصل اقتفاء مسالكها وتحديد نقاط البدء والنهاية إلى نتائج تصبوا إلى الدقة أحيانا وتبحث عنها أحيانا أخر.

نحن بكل بساطة لا نرفض هذا الواقع ولا نحاول فهمه لأننا لا نطرح البدائل ولا نقوم بتقويم وتقييم المراحل التي تمر بها كل قراءة بل إننا نقفز لمجرد أن الآخر قفز ونتوقف لأن الآخر أعلن الوقوف "لقد تحول الحوار مع الغرب إلى تقليد للغرب ... وأي غرب! إنه الغرب الاستهلاكي في أحيان كثيرة"،١٧فوقوفه مرهون بالسبق الزمني هذا إن لم نقل الفكري بطبيعة الحال لأنه في حالة الانجاز ونحن لا زلنا في مرحلة التلقي، إذا أمعنا النظر في بعض الأعمال ولا نقول كلها حتى لا نقع في فخ التعميم نجد بعض النماذج المختارة للقراءة والتي رغم أنها قراءات سيميائية تحولت طريقة آلية جافة تمارس سلطتها باحترافية على الخطاب الشعري، كما تعمل على إظهار أشكال وهيئات دون غيرها وموقع القارئ عند تلقيه بعض التحليلات السيميائية كهذه، يحس وكأن الكاتب أوالمستخدم لهذه القراءة إن صح التعبير يهرب به بعيدا إلى الأمام، حتى وكأن اللحظة تنفلت من القارئ فلا هومدرك لما هوحاصل ولما سيحصل فيما بعد.

التحقق الإجرائي في هذا المجال ملزم بتقديم ما هوظاهر باعتباره بحث عن جوهر آخر جديد، دعت الرغبة إليه، "فإن التجربة لدينا كانت محكومة فقط بالرغبة في التغيير لا بالحاجة إليه وفرق كبير بين مجرد الرغبة والحاجة"١٨، فعندما يصبح الخط أيقونة تدل على أمر ما غائب، فنحن إزاء علامة حركت العمل أفقيا، لاعتبارات رأى فيها أن "حركة يد الشاعر أوالخطاط المتقدمة في اتجاه الكتابة -الذي قد يكون أفقيا أوعموديا أومائلا - والمسجلة بخط متصل من الوحدات تنتج محورا أفقيا تلاحقيا، وكل بنية من هذا النوع تبين أن الزمن يمكن أن يكتسح الفضاء... والأفراد الذين يقدمون هذا النوع من البنى الخطية يكون زمنهم الشخصي ملتصقا بالزمن الاجتماعي، إنهم لا يستشعرون المدة لأنهم مندمجون كليا في الزمن الذي يملؤنه"١٩، لم تكن الخطوط وحدها محط التأمل والقراءة لدى محمد الماكري، بل تعدى ذلك إلى سمك السطر، وشكل الحروف، وحجم الأسطر، فكانت بمثابة الأيقونات، كما يعبر توزيع البياض والسواد أيضا أيقونة وهومستوى ثان في إطار الفضاء النصي، هذا التوزيع الذي قد يختلف من خطاط لآخر.

يبرزه نوع الخط وما أراد الخطاط بثه من خلال خطابه الشعري الذي قد تختلف أشكاله بطريقة متعمدة و"تتحول فيه الأسطر المكونة من مجرد محيطات لغوية بصرية ممنوحة للقراءة إلى معطيات تشكيلية أوجدت، لا لتقرأ ولكن لتشاهد كعلامات بصرية"٢٠، بشكل متعمد حتى يتسنى فهم الرسالة أوتثبت خصوصية الخطاب الشعري البصري الذي يعتمد الهيئات البصرية، إن صح القول وإن كان هناك دراسات أخرى أولت عناية بالخط بصفة أخص كما فعل يحي عبابنة× في تتبعه للخط العربي في شكله وهيئاته المختلفة وتتبع المراحل التاريخية لتطوره.

## د-السيميائية وجه غربي بجفون عربية:

دعوات كثيرة ومتنوعة هي التي تحاول قدر الإمكان التأسيس لقراءة نقدية عربية، وإن استمدت من المنتج الغربي، فذلك لا يعني حصولها على نوع من الخصوصية ،أوالصيغة الذاتية بتواصلها مع التراث النقدي، "فمن واجبنا أن نعود إلى تراثنا النقدي لاستيعابه وامتلاكه ... والتمكن منه ...لتجاوزه ومن ثم، عن بينة...وفهم ...واطلاع ...وليس استجابة لطموحات آداب أخرى ... وحضارات أخرى... وحينها يحدث -فيما أزعم -الحوار الحقيقي بين الحضارات ومنجزاتها كافة ...ومن ذلك الإنتاج الأدبي"٢١،وكذا من حقها أيضا الاطلاع والنظر إلى الخطاب الأدبي بشقيه، وكذا الخطاب النقدي بمقتضيات العصر، خاصة إذا ما آمنا بتكاثف الخطاب، "حيث يكتب النص من جديد مع كل قارئ بل مع كل قراءة"٢٢لتعلن عن وضعيته متحركة غير قارة.

غير أن الحديث عن القراءة السيميائية للخطاب الشعري، حديث مختلف تتداخل فيه الأفكار حد الذوبان فلا نكاد نحصي رأس الخيط الأصلي، إن المتتبع لهذه الحركية أن جاز لنا ذلك، والتي كان سبب ظهورها عوالم كثيرة وظروف متشابهة نوعا ما ،يلاحظ مدى حرص القارئ العربي المتخذ القراءة السيميائية مطية، في ولوج الخطاب الشعري للحصول على أهم أبعاده ،ربما التي ظل القارئ يبحث عنها لسنين لكن بفرضيات تختلف، وتبتعد في بعض المرات عما هوسيميائي، خاصة إذا كان الخطاب المقروء عربي، "فمن المؤكد أن أي عمل أدبي نابع من صميم البيئة العربية يظل مغتربا، بل ويتم إلغاؤه،وطمس أسئلة الذات الكاتبة والمنتجة له، عندما يصير تباهي الناقد العربي بالمفاهيم، والمناهج النظرية الغربية غشاوة سميكة تحول بينه وبين الاهتمام بالعمل الإبداعي، والإنصات إلى الأصوات والأصوات المتردة فيه، مما يجعله بعيدا كل البعد عن تقديره حق قدره"٢٣، لكن حرص الناقد من جهة أخرى يُثمّن على أي حال،لأن البقاء دون حركة فيما العالم يتغير في كل ثانية أمر لا يتصوره العقل أوالمنطق بتاتا.

إذا نظرنا إلى العملية كيف تجري عن كثب، وجدنا العالم ينقسم إلى مجموعات كبرى تتراص فيها أوتلحق بها مجموعات صغرى، بل مجرات لا يمكن أن يحصيها من يعرف مجرة واحدة، هذا إن كان يدري أنه داخل مجرة! القراءة السيميائية في الضفة الأخرى أوالعالم الغربي بتعبير مغاير، إن جاز لنا نسميه كذلك سيميائيات، وعليه "أن تقرأ سيميائيا بمعنى أنك تبني خطابا"٢٤ ،إذ أقررنا بهذه القضية فإننا أمام خطابات غير متناهية وافدة ومحلية ،ونحن بذاك أمام نظرة مخالفة، أوبالأحرى تحتاج إلى إعادة نظر في بعض ما نقلنا، وبعض ما فهمنا وبعض ما نود التفكير فيه.

الشرخ الحاصل هوأن بعضنا يفكر في الخطاب النقدي وبعضنا الآخر يفكر في الخطاب الأدبي والشعري على الخصوص، متناسيين الجمع بينهما تحت راية الخطاب، الذي أصبحنا لا نعلم كيف نصنفه لأننا بكل بساطة نرى الفرق واسع، فإذا كان الخطاب منظورا إليه من القراءة السيميائية على أنه "موضوع والسيميائية تبنى بالتحليل، والذي منه قابلية التطبيق المتجاوزة للموضوع النصي للنص"٢٥،فإننا أمام حدث مغاير يمثل هلامية الحدث بكامله، بتشكيل ضبابية حول ما نود قراءته، وما نود معرفته بأدوات أُنتجت بعيدا عنا وعن ثقافتنا.

أظننا نقف في مفرق طرق تعلن فيه القراءة السيميائية أوليتها، باعتبارها خطاب آخر يضاف على الخطاب الشعري، من المحزن فعلا أن نرى الأعمال التطبيقية لنقادنا العرب الذين حاولوا جاهدين قراءة الخطاب الشعري قراءة سيميائية، كأنها شامة على وجه تترك للزينة تارة، وتنزع بالعمليات التجميلية حتى لا يبقى منها ما يدل على أنها كانت شامة فيما مضى، معرفتنا لذواتنا وموقعنا على الخارطة السيميائية العالمية، تحدده نظرتنا للأشياء المحيطة بنا وفهمها أيضا،ويحدده مجال عملنا القرائي الذي يكتفي في بعض الأحيان بالأخذ من الفروع.

أمر مثل هذا لا يعتبر عيبا وإنما يشوبه نوع من الغموض، خاصة إذا ما نظر للقراءة السيميائية كعملية "تتيح للقارئ مجالا ليبني طالما كان ما يبنيه غير مناف للنص"٢٦، عملية البناء هذه ترتكز على عامل ثان، "في السمطقة الذي يُحول التصوير نحومعنى آخر ذي بعد رمزي، هوكيفية بناء النص"،٢٧ولوأن هذه النظرة هي خليط بين فك الرمز، والتعرف على طريقة بناءه على محور ما رآه ميخائيل ريفاتير في قراءته السيميائية للخطاب الشعري بمزيج أسلوبي.

ما نود طرحه هوتمازج الأفكار والمفاهيم المنبثقة من حلقات بحثية غير متناهية، تفسر مدى جهود بعض القراءات في الوطن العربي، ما يعلل تلك النحافة التي يعانيها التطبيق الإجرائي على الخطاب الشعري، أمر طبيعي أن تظهر بعض الأعمال بهذا الشكل، إذا كان المنطلق غير واضح المعالم،لا نهاجم البتة الأعمال ولا نصغر من حجمها، فقط نحاول فك شفرات القضية وتتبع الحلقة الضائعة بإعلان التوقف لفترة فقط تمكننا من فهم ما يجول حولنا.

إذا رجعنا إلى قضية بناء النص عموما، والخطاب الشعري خصوصا لدى قراءته سيميائيا نلحظ التحول الحاصل في المفهوم العام، فما نجحت القراءة السيميائية في تحقيقه، هواغراق الساحة النقدية بكم هائل من المفاهيم والمصطلحات (المهمة)، التي استحالت عند التطبيق إلى مجرد استمارات أوكشوف بيانات تُملأ عند الحاجة، مما جعل معظم التحليلات تتشابه إلى حد التطابق والأخطر من ذلك غدت النصوص الأدبية متساوية من حيث القيمة جيدها ورديئها"،٢٨إشكالات كثيرة سقطت فيها القراءة السيميائية، سواء لدى الغرب والعرب على حد سواء، والمتبصر للقضية يلاحظ مدى المأزق على حد تعبير قادة عقاق×، الذي وقعت فيه القراءة من حيث إجرائها ومفاهيمها بل إن من النقاد الغرب من شك في صلاحية بعض الإجراءات ومصداقيتها، في تطبيقها على الخطاب الأدبي٢٩، شك مشروع قوامه النسبية في النتائج وكذا الإجراءات العملية المداهمة للخطاب الأدبي.

عملية المتابعة ليست سهلة ولا بسيطة، " لكي نستطيع محاصرة قضية من القضايا علينا أن نأتيها من أطراف عدة على الأقل، إن لم نستطع أن نأتيها من أطرافها جميعا في وقت واحد، تتعدد تبعا لذلك وجهات النظر، وربما النتائج وقد تنتهي هذه إلى التناقض أوإلى شيء قريب"٣٠،ومع ذلك الأمر جدير بالاهتمام والأهم من ذلك كله إظهار القضية، حتى نتمكن من رؤية المختلف أوتغيير زاوية الرؤية قليلا ،حتى وإن كان بالوجه الغربي، فالأجمل ما في الأمر أنه بجفون عربية، والأصعب أن "الاحتمال هومجرد احتمال والارتكاز على الاحتمال وحده لن يوصلنا إلى أي شيء"٣١،لكنه كل شيء لأن النظرة في الأخير هي ما يحدد الصورة ككل.

## الهوامش:

١ سعد البازغي، استقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث، المركز العربي الحديث، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٤، ص ٥.

٢ سعيد يقطين، فيصل الدراج، آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، سوريا،ط١، ٢٠٠٣، ص ٢٠

٣ سعد البازغي، استقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث،ص٩٣.

٤ المرجع نفسه،ص١٣٥.

٥ عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي ،دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، وهران، الجزائر، ط١، ١٩٩٣، ص ٣٤.

٦ جابر عصفور، ( قراءة التراث ووعي الآخر في الكتابة النقدية) ، جريدة الأسبوع الأدبي البديل العراقي، العدد:١٠٤٢، تاريخ:١١, ٠٥, ٢٠٠٦.ص٠٤

E-mail.aru@net-sy

٧ قادة عقاق، في السيميائيات العربية (قراءة في المنجز التراثي) ، ص١١٠.

٨ المرجع نفسه ، ص ١١٠.

٩ قادة عقاق، في السيميائيات العربية (قراءة في المنجز التراثي) ،ص ١١٠.

١٠ عبد العاطي كيوان، منهج التناص (مدخل في التنظيم ودرس في التطبيق) ، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠٠٩، ص٠٩.

×لدينا ثلة من الكتاب العرب لا بأس بها ممن كانت لهم الحظوة في الدراسة بالخارج وممن تلقوا السيميائية من منابتها الأصلية كرشيد بن مالك، سعيد بوطاجين وغيرهم ...

١١ مصطفى خضر، النقد والخطاب محاولة قراءة في مراجعه نقدية عربية معاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا، (د.ط)، ٢٠٠١، ص:١٢.

١٢ المرجع نفسه، ص:١٨.

×ولوأن بعض الآراء النقدية وبعض الهتافات رأت في القضية، وجود ما يدل على بعض ما جاءت به السيميائية الحديثة في التراث الغربي مقالات ومحاولات تنم عن تقديس التراث ورفض الاعتراف بالآخر ليس إلا.

١٣ مختار ملاس (التجربة السيمائية العربية في نقد الشعر –قراءة في المنهج-الملتقى الدولي السادس في سيمياء النص الأدبي كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر –بسكرة-الجزائر،٢٠١١،ص :١٢٥ http://fr.univ.biskra-dz

١٤ منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٠١، ١٩٩٨، ص٧٦.

١٥ ميخائيل عيد، أسئلة الحداثة بين الواقع والشطح (أراء) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا، (د.ط) ١٩٩٨، ص١٥

١٦ محمد الماكري،الشكل والخطاب،مدخل للتحليل الظاهراتي للخطاب، ص٢٣٠.

١٧ المرجع نفسه،ص:٢٣٦،٢٣٥.

١٨ المصدر نفسه،ص:٢٤٣

×قام يحي عبابنة في كتابه: النظام السيميائي للخط العربي في ضوء النقوش السامية ولغاتها بتتبع الحروف ،بدء بالمسمارية إلى غاية المكتوبة، وكيفية تطور رسم الحرف معتبرا اياه أيقونة تدل على أمور غائبة كثيرة ،أغلبها ما تعلق بالمعتقدات والديانات ،وبعض الأفكار التي سجلها وشهدها التاريخ.

١٩ محمد راتب، النص والممانعة (مقاربات نقدية في الأدب والإبداع) ، منشورات الكتاب العرب، دمشق – سوريا، (د.ط)، ١٩٩٩، ص٠٦

٢٠ المرجع نفسه، ص١٠.

٢١ عبد الفاتح افكوح، (المنهج في نقد العمل الأدبي) ، منتديات عبد الرحمان يوسف ص٠١

www.ahmed nabil.com.

٢٢ Louis pancier، discours، cohérence، énonciation un approche de sémiotique discursive، presse de l'université، Sorbonne، paris، ٢٠٠٥، P : ٠٢

« Lire en sémiotique c'est construire un discours »

٢٣ Ibid.، P : ٠٢

« Le discours et un objet et sémiotique construit par l'analyse et dont l'applicabilité permet de passer de l'objet textuel au texte »

٢٦ سيزا قاسم ونصر حامد أبوزيد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا، (مجموعة مقالات مترجمة)، الجزء الثاني، منشورات عيون، الدار البيضاء، المغرب، ط٠٢، ١٩٨٧، ص٦٧

٢٨ المرجع نفسه، ص٦٢.

٢٩ قادة عقاق، تلقي المعرفة السيميائية في الخطاب النقدي المغاربي، مستوياتها رهاناتها ونتائجها التوجه الغريماسي أنموذجا، الملتقى الدولي السادس في سيمياء النص الأدبي، ص:٧٧.

× له كتاب مأزق السيميائية قراءة نقدية في جهازها المفهومي والإجرائي، يحوي العديد من ردود الأفعال الغربية والعربية حول قضية القراءة السيميائية فيما يخص النص السردي طبعا.

٢٩ ينظر: قادة عقاق، مأزق السيميائية قراءة نقدية في جهازها المفهومي والإجرائي، دراسة مخبر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية، مكتبة الرشاد – سيدي بلعباس – الجزائر، ط١، ٢٠٠٩،ص:٢٥.

٣٠ منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٠١، ١٩٩٨، ص : ٧٦.

٣١ سعيد بن كراد، السيميائيات والتأويل، مدخل إلى السيميائيات ش،س، بيرس، : ٦٠.

## قائمة المصادر والمراجع:

١- مصطفى خضر، النقد والخطاب محاولة قراءة في مراجعه نقدية عربية معاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا، (د.ط)، ٢٠٠١.

٢- محمد راتب، النص والممانعة (مقاربات نقدية في الأدب والإبداع)، منشورات الكتاب العرب، دمشق – سوريا، (د.ط)، ١٩٩٩.

٣- منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٠١، ١٩٩٨.

٤- ميخائيل عيد، أسئلة الحداثة بين الواقع والشطح (أراء)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا، (د.ط) ١٩٩٨.

٥- محمد الماكري،الشكل والخطاب،مدخل للتحليل الظاهراتي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،ط١٩٩١،١.

٦- سعد البازغي، استقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث، المركز العربي الحديث، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٤.

٧- سعيد يقطين، فيصل الدراج، آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، سوريا،ط١، ٢٠٠٣ .

٨- سيزا قاسم ونصر حامد أبوزيد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا، (مجموعة مقالات مترجمة)، الجزء الثاني، منشورات عيون، الدار البيضاء، المغرب، ط٠٢، ١٩٨٧. ٩سعيد بن كراد السيميائيات والتأويل، مدخل لسيميائيات، ش،س بيرس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الغرب، ط ٠١، ٢٠٠٥،

١٠- عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي ،دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، وهران، الجزائر، ط١، ١٩٩٣.

١١- عبد العاطي كيوان، منهج التناص (مدخل في التنظيم ودرس في التطبيق)، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠٠٩.

١٢- قادة عقاق، قادة عقاق، في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، مكتبة الرشاد والنشر، سيدي بلعباس، الجزائر، د.ط، ٢٠٠٤

١٣- Louis pancier، discours، cohérence، énonciation un approche de sémiotique discursive، presse de l'université، Sorbonne، paris، ٢٠٠٥

١٤- قادة عقاق، تلقي المعرفة السيميائية في الخطاب النقدي المغاربي، مستوياتها رهاناتها ونتائجها التوجه الغريماسي أنموذجا، الملتقى الدولي السادس في سيمياء النص الأدبي.

١٥- جابر عصفور، ( قراءة التراث ووعي الآخر في الكتابة النقدية)، جريدة الأسبوع الأدبي البديل العراقي، العدد:١٠٤٢، تاريخ:١١, ٠٥, ٢٠٠٦. E-mail.aru@net-sy

١٦- عبد الفاتح افكوح، (المنهج في نقد العمل الأدبي)، منتديات عبد الرحمان يوسف ، www.ahmed nabil.com.

١٧- مختار ملاس (التجربة السيمائية العربية في نقد الشعر –قراءة في المنهج-الملتقى الدولي السادس في سيمياء النص الأدبي كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر –بسكرة-الجزائر،٢٠١١. http://fr.univ.biskra-dz